فلسفة حرب التحرير الشعبية

سيِّد البحراوي

كنتُ أُعِدُّ حقيبتي الصغيرة للخروج في رحلة قصيرة، أحاول بها تجاوزَ الشعور بالوحدة والعجز والإحباط الذي يلازمني منذ سنوات عديدة، حينما فتحتُ ـ مصادفةً ـ التلفزيونَ وعرفتُ خبرَ أَسْرِ الجنديْن الإسرائيليْن.

تركتُ الحقيبة، وجلست

انتابني الشعورُ المزدوجُ بالسعادة والقلق.

مبرِّرُ السعادة كان واضحًا لكنّ مبرِّر القلق كان مركَّبًا: هل حَسِبَ حزبُ اللّه جيدًا حجمَ الخسائر التي سوف يتكبّدها لبنان؟

وهل ما سيحقِّقه من أهداف (حَدَّدَها منذ البداية بتحرير الأسرى) يستحقّ كلَّ هذه الخسائر؟

وهل ستنحصر مثلُ هذه الحرب في لبنان وحده؟

بدأتُ الاتّصالَ بالزملاء والأصدقاء كان القلقُ غالبًا عليهم، ولكنْ من دون أيّة إدانة؛ كانت ثمة تساؤلاتٌ فقط. كان هدفي واضحًا: أن يتجمّعَ أكبرُ عدد ممكن من المصريين في مكانٍ محدّد، ويُعْلنون الإضرابَ عن الطعام حتى إغلاقِ السفارة الإسرائيلية في القاهرة وسحبِ السفيرِ المصري من تل أبيب.

لم يتحقّق هدفي، وظللنا منذ الثالث عشر من يوليو نقيم المظاهراتِ الصغيرةَ في أماكن مختلفة من القاهرة والمحافظات، ونَجْمع الدعمَ العيني، ونوقِّع البيانات، ونقيم اجتماعاتِ التضامن ولكنّ الهدف لم يتحقّق.

في الأيام الأولى لم أكن أعرف حجمَ القوة الميدانية للمقاومة، كما لم أكن أعرف أنّه قد حُسِبَ حسابُ كلّ شيء بدقةٍ تامة، بما في ذلك ضعفُ الدعم الشعبي العربي بفعل القيود الرسمية المفروضة على الشعب العربي. وكانت مفاجأتي حينما أدركتُ أنّ المقاومة توقّعتْ ما لم أتوقّعه: فقد توقّعتْ هذه الخيانة العظمى من أنظمة عربية وقوى سياسية عربية. ويبدو أنّ الإسرائيليين أنفسَهم لم يتوقّعوا أن يحاربوا بلدًا عربيّاً بدعمٍ سياسي وعسكري من بلدانٍ عربية!

استندت المقاومةُ في مواجهةِ كلّ ذلك إلى قوةٍ ذاتيةٍ محض، وإنْ كانت مدعومةً بسلاح أصدقاء لا شكّ في أهميّته القصوى لكنّه ـ أي السلاح ـ لم يكن **وحدَه** ليستطيع أن يحاربَ على هذا النحو، ويحقّقَ هذه الانتصارات. لقد سَمّى السيد حسن نصر اللّه (القائد العظيم الذي امتلَكَ كلَّ صفات القيادة الحقّة) هذه الحرب بـ «حربِ العصابات،» وهي تسميةٌ غيرُ صحيحة على الإطلاق. فهذه، في الحقيقة، **حربُ تحرير شعبية** عرفتْها شعوبٌ عديدةٌ: في مصر ١٩٥٦ وما قبلها، وفي أميركا الجنوبية، وفي فيتنام، وفي غيرها وغيرها. وقد انتصرتْ هذه الشعوب بهذا النمط من الحرب الذي لا يحتاج إلى عدد وعتاد في مثل قوة العدوّ بالضرورة، ويستند إلى الطاقات الشعبية الدافقة والمرنة والتي لا نهاية لها، خاصةً إذا كانت الأرضُ مناسبةً لمثل هذه العمليات.

حرب التحرير الشعبية التي قادها حزبُ اللّه استندتْ، إذن، إلى فلسفةٍ نَجَحَ الحلفُ العولمي في المنطقة والعالم في إضعافها إلى أقصى حدّ إنّها فلسفة المقاومة وهي فلسفةٌ يمتزج فيها العلميُّ بالديني بالسياسي بالأخلاقي بالإنساني على نحوٍ لم يتحقّق في أيّ حركةٍ من حركات المقاومة العربية الحديثة.

استندت المعركةُ إلى أساس معرفةٍ علميةٍ مدروسةٍ بالقوى الذاتية، وبالعدوّ، وبمجرى الأوضاع في المنطقة والعالم. كما استندتْ إلى الاستفادة العلمية المحسوبة بالطاقات والإمكانيات المتاحة عسكريّاً وسياسيّاً وإعلاميّاً إلى أقصى درجة ممكنة. واستندتْ إلى عقيدة إسلامية راسخة، مدعومةٍ دون شكّ بروح الاستشهاد الشيعي، وكذلك بمبدإ التقيّة الذي كان شديدَ الفائدة عسكريّاً وسياسيّاً وإعلاميّاً، دون أن تكون هذه العقيدة مدّعيةً ومتشدّقةً وطاغيةً.

وهنا كان الخطابُ الوطني هو الخطابَ السياسيَّ السائد. فقد وَضَعَ مصلحةَ لبنان والعرب ـ مسلميهم ومسيحييهم ـ فوق كل مصلحة أخرى، وحاول التواصلَ مع مختلف القوى بغضّ النظر عن دينها أو طائفتها ولقد تجاوب معه العربُ، أقصد الشعوبَ

غابرييلا بوليسوڤا

كتاب في الضاحية الجنوبية

بمختلف أديانها، وكذلك الشرفاءُ من العالم أيّاً كانت عقيدتهم رغم كل الفتاوى المغرضة.

ليس كلُّ المتديّنين أخلاقيين، والأمرُ عينُه ينطبق على السياسيين. لكنّ حزب اللّه خاض حربًا التزمتْ بالأخلاق السامية: نَطْلب الحقَّ والحريةَ والعدل، ونلتزم بها للآخرين أيضًا، ولا نَضْرب المدنيين كلّما كان ذلك ممكنًا... عكسَ إسرائيل التي حَطّمتْ ـ كعادتها ـ كلَّ مواثيق حقوقِ الإنسان وشرائعِ الحرب.

هذه القيم ليست قيمَ حزب اللّه وحده، وإنّما هي طموحُ الإنسان في كلّ زمان ومكان وقد حاربت المقاومةُ الإسلاميةُ من أجلها، وانتصرتْ من أجلها. ففي حين لم تتحقّق الأهدافُ المعلنة بعد، أيْ تحريرُ الأسرى ومزارع شبعا، فإنّها ستتحقق في القريب بحسب قراءتي لسير الأحداث.

ثَمَّ دمارٌ فظيعٌ، لكنّ إصلاحَه سهل، ما دام الهدفُ الأسمى قد تحقّق وهو: نجاحُ فلسفة المقاومة التي أعادت إلى المنطقة، وخاصةً إلى الأجيال الجديدة التي لم تَشْهدْ في حياتها وقفةَ كرامة أو صمودٍ في مواجهة البغي والإذلال والمهانة التي تمارسها إسرائيلُ وأميركا ضدّها، هذه الفلسفة أعادت الأملَ في الحياة، وفي إمكانية الفعل، وإمكانية الانتصار.

تبقى بعد ذلك الخطورةُ الفادحةُ التي تُمثِّلها ضغوطُ الأعداء في الداخل والخارج، الذين أرعبتْهم فلسفةُ المقاومة وانتصارُها. هذه الضغوط تسعى ـ وهذه مصلحتُها الطبيعية ـ إلى إجهاض الانتصار، والقضاءِ على هذه الفلسفة لكنّي واثق بأنّ المقاومة، التي ينبغي أن تتضافرَ معها كلُّ قوى المقاومة العربية والإسلامية والعالمية، قد استفادت من الدروس جيدًا، وسوف تواصل انتصاراتِها رغم المخاضِ الأليمِ والتضحياتِ الفادحة

القاهرة

د. سيِّد البحراوي

كاتب مصري